تاريخ دمشق العمراني

لمحة عامة عن تطور المدينة العمراني خلال العصور

عبد القادر الريحاوي

المدينة الآرامية

أقدم ما عرفناه من تاريخ دمشق وآثارها لا يرقى إلى أبعد من ألف عام قبل الميلاد ، حين كانت عاصمة لدولة آرامية صغيرة . وإذا كانت أخبار دمشق قبل العهد الآرامي ما تزال مجهولة الينا ، فليس يعني ذلك أنها وجدت فجأة في هذا العهد ، ولا بد أن تكون قد مرت كغيرها من المدن السورية بمرحلة طويلة من النمو والتطور ، ولا بد أنها جذبت الإنسان الاول للاقامة على أرضها التي تتوفر فيها أسباب الحياة من أرض خصبة ومياه غزيرة واقليم معتدل وموقع ممتاز . ووجودها قبل العهد الآرامي حقيقة واقعة تؤيده الوثائق الفرعونية ـ وثائق تل العمرنة ـ التي تذكرها في عداد المدن التي فتحها تحوتمس الثالث في القرن الخامس عشر قبل الميلاد . والطريف في الأمر أن اسمها ورد هكذا : دمشقا »[1] ، وهو لفظ لا يختلف عما ورد في التوراة والوثائق الآشورية أيضاً . غير أن الآراميين أطلقوا عليها اسم « داروميسق » التي تعني كما رأى بعض العلماء الأرض المسقية[2] ، أو الدار المسقية ، المعنى الذي ينسجم مع اللفظة الآرامية ، ويتفق كذلك مع الواقع الجغرافي ، أكثر من أي تفسير آخر من التفاسير الكثيرة التي اجتهد المؤرخون العرب ومن قبلهم في استنباطها ، ويبدو أن اليونان والرومان

---

(١) (انظر قائمة المصادر في آخر المقال) Dussaud : Topographie .. P. 292

(٢) Abel : Géo . de la Palestine T . II , P. 301

حوروا الاسم الآرامي ولفظوه « داماسكوس » Damascus بينما عاد به العرب سيرته الأولى .

ولئن توفرت لدينا معلومات عن الأحداث التاريخية التي عاشتها دمشق في العهد الآرامي ، فإن معلوماتنا عن أحوال المدينة وأوصافها جد ضئيلة ، لفقدان معالمها الأثرية وصعوبة التنقيب عن آثارها ، ومن الواضح بأنها نشأت مدينة صغيرة وسط غوطة واسعة يرويها نهر بردى وفرعاه تورا وبانياس وتتوزع في أطرافها القرى والمزارع التي تتمثل في التلال العديدة المنبثة في أرض الغوطة اليوم ، ونرجح بأن موقع المدينة في ذلك العصر كان يشغل الجانب الغربي من دمشق القديمة ، بسبب ارتفاع هذه المنطقة بشكل ملحوظ عن الجانب الشرقي .

وكانت أزقة المدينة ومساكنها تتوزع بغير نظام بين معبدها الشهير – معبد حدد – والقصر الملكي ، الذي يرجح الأثريون أن يكون موقعه في جنوب المدينة . وفعلاً فإن المتجول المدقق في المنطقة يجد تلاً ضائعاً بين المسالك والأحياء القديمة ، يدل عليه اسم الحي المعروف بتلة السماكة من ناحية ، والأزقة ذات الأدراج من جهة ثانية . وتشير الدراسات الطبوغرافية الى ارتفاع ذروة التل من خمسة عشر متراً عن قاعدته و (٦٩٥م عن سطح البحر) . والتل اليوم مشطور بالشارع المستقيم الذي شق في العهد الروماني إلى شطرين تقع ذروة التل والجانب الهام منه الى يمين هذا الشارع المتجه الى الباب الشرقي علماً بأن هذا الشارع ارتفعت سويته زيادة عن أربعة أمتار عما كانت عليه عند شقه .

لقد حالت حتى الآن كثافة البناء في هذا الحي القديم دون التنقيب فيه ومعرفة ما في باطنه ، ولكن لا بد من المبادرة الى هدم بعض البيوت العتيقة أو انتهاز فرصة تجديد بعضها من أجل سبر المكان والتأكد من حقيقته التاريخية .

ولقد تحدثت الروايات التاريخية الى أهمية القصر الآرامي من حيث حصانته ومقاومته لهجوم الآشوريين ، ومن حيث غناه بمظاهر الأبهة والترف . وعددت الوثائق الآشورية جانباً من موجوداته التي حصل عليها ملك آشور « آداد نيراري الثالث » يوم حصاره دمشق عام ٨٠٥ قبل الميلاد ، كالأقمشة المزركشة والأسرة والمقاعد العاجية المطعمة بالذهب والأحجار الكريمة[١] .

ونشير بهذه المناسبة الى القطع العاجية الثمينة التي عثر عليها المنقبون في موقع أرسلان طاش

---

(١) بشير زهدي – مملكة دمشق الآرامية – الحوليات السورية الأثرية المجلد الثامن ص ٩٢ .

الآشوري (في الشمال الشرقي من حلب ، قريباً من الحدود التركية) ، والمنسوبة الى ملك دمشق الآرامي « حزاقيل » ، والتي تعد من روائع فن النحت ، وهي موزعة بين متحفي حلب واللوفر .

وأما المعبد فكان مكرساً لاله الآراميين الكبير « حدد » ومحله عند الجامع الأموي كما هو مرجح وكان من الشهرة في ذلك العصر حتى أن ملك يهودا عندما زاره طلب أن يصنع له مذبح كمذبح معبد دمشق الرائع ليوضع في معبد القدس[١] . ولم يبق من آثار هذا المعبد سوى لوح حجري ضخم عثر عليه في أساسات جدار الجامع الأموي الشمالي ، ونقل الى المتحف الوطني ، وعلى هذا اللوح نحت بارز يمثل أبا الهول المجنح ويجدر أن نلاحظ أن الحياة الفنية في العهد الآرامي كانت متأثرة الى حد بعيد بالفن المصري ، يتجلى ذلك في لوح المعبد هذا ، وفي الألواح العاجية المتقدمة الذكر .

المدينة في العهد اليوناني — الروماني

وفي عهود الاحتلال الآشوري ثم البابلي والفارسي لم يحدث شيء ذو بال في حياة دمشق العمرانية والفنية . الى أن حل اليونان فيها إثر الفتح المكدوني الذي حدث عام (٣٣٣ ق م) ولم تمر القرون الأربعة التي عاشها اليونان في دمشق دون أثر يذكر في تاريخ المدينة . جرت العادة أن يبالغ الناس في الدور الحضاري الذي قام به اليونان في سورية صحيح أن اليونان كانوا وقتئذ مزودين بالثقافة والنظم والمبادىء الاجتماعية التي تختلف عما كان عليه الشرق ، ولكن هذا الشرق الذي بسطوا سلطانهم عليه كان على جانب كبير من الحضارة ، لم يرق اليها اليونان ، وقد تعلموا منه الشيء الكثير لاتصالهم به قبل الفتح وبعده . وقد جهد خلفاء الاسكندر من بطالسة وسلوقيين الى خلق ثقافة جديدة تعبر عن هذا التمازج فكانت الثقافة الهلنستية التي طبعت الامبراطورية اليونانية بطابعها عدة قرون .

وفي دمشق عاش اليونان إلى جانب الآراميين جنباً إلى جنب وأصبح لليونان جالية كبيرة

---

(١) بشير زهدي ص ٩٨ . المصدر السابق .

سكنت أحياء مستقلة مؤلفة مدينة جديدة إلى جانب المدينة الآرامية . لها نظام المدن اليونانية في التخطيط والتنظيم ، فهي تمتاز بالشوارع المستقيمة المتقاطعة ، تحصر فيما بينها وحدات سكنية على هيئة الجزر بحيث يشبه هذا النوع من التنظيم رقعة الشطرنج .

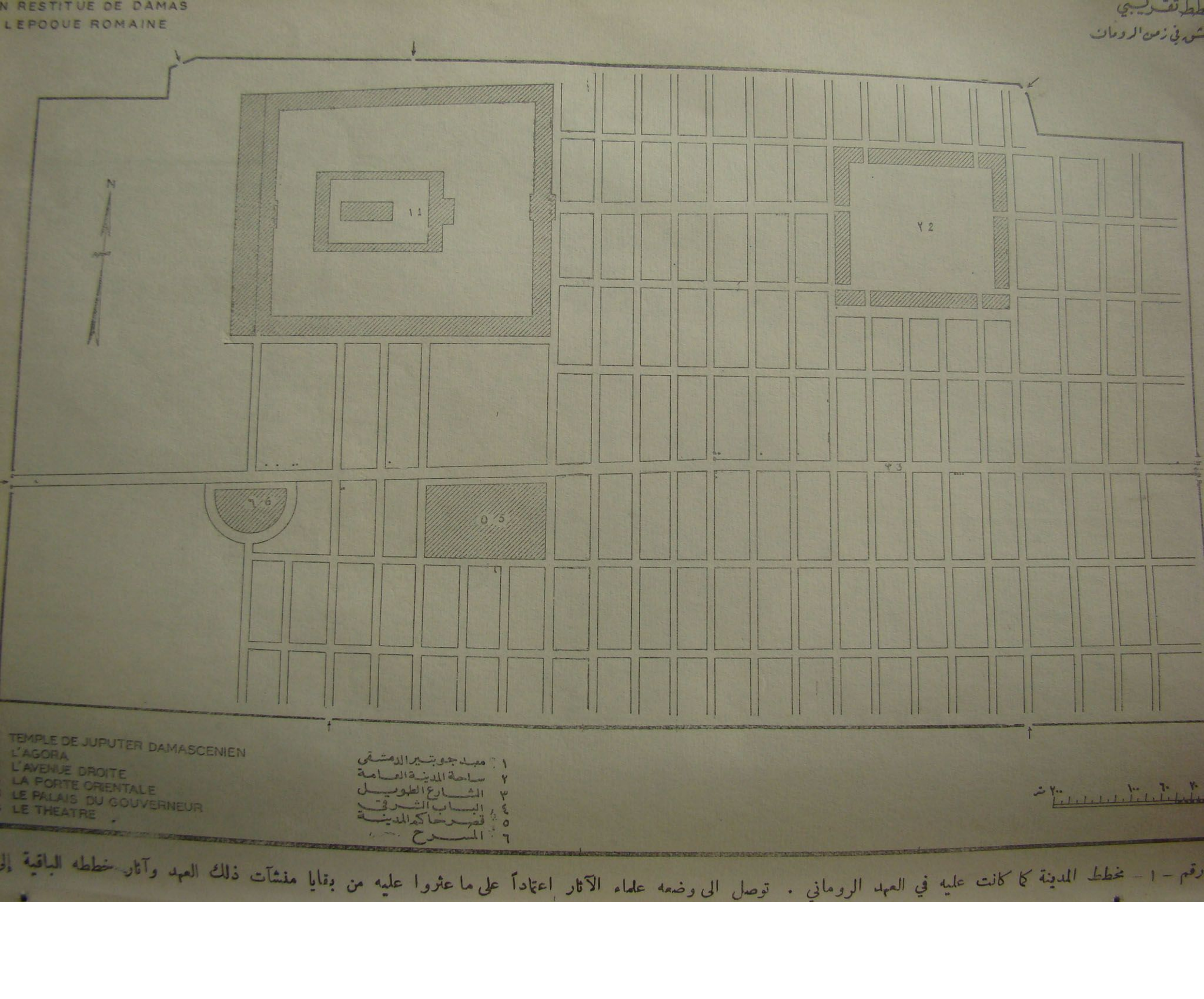
ولقد دلت الدراسات الطبوغرافية على أن هذه المدينة أقيمت في الجانب الشرقي وكانت تحتوي على ساحة واسعة للسوق العام _ آغورا — وأمكن التعرف على بعض جدرانها ، ولا شك أن الانباط الذين احتلوا المدينة فترة من الزمن[1] كما رأينا قطنوا في هذا الجانب أيضاً يدل على ذلك اسم المحلة الموجودة داخل باب توما والتي حافظت خلال القرون الوسطى على اسمها وهو « النيبطون » . ولا ندري بماذا نفسر فقدان أي بناء دمشقي يرجع الى هذا العهد . هل هو التنازع الدائم بين دولة البطالسة في مصر والسلوقيين في أنطاكية ووقوع دمشق بأيدي هؤلاء تارة وأولئك تارة أخرى ، أو لأن تحركات الأنبـاط العرب في البتراء أوجد حالة من عدم الاستقرار فلم تعط دمشق أي آبدة جديرة بالبقـاء ، كما بقيت أوابد العصر الذي تلاه إلى يومنا .

المدينة في العهد الروماني

ان السلم الروماني والازدهار الاقتصادي الملحوظ الذي حظيت به دمشق في أيام تبعيتها للامبراطورية الرومانية قد ضاعف عدد سكانهـا وأحدث حركة عمرانية واسعة الأمر الذي استدعى توسيع المدينة وإحداث تنظيم جديد فيها يحقق المفاهيم الجديدة في تنظيم المدن وتحصينها فأحيطت المدينة بسور واسع مستطيل بني بالأحجـار الضخمة احتمى وراء وادي بردى من ناحية الشمال وزود بسبعة أبواب واحد في الشرق وآخر في الغرب (باب شرقي ، وباب الجابية) . واثنان في الجنوب هما باب كيسان والباب الصغير وثلاثة في الشمال هي باب توما وباب الجنيق (الذي كان بالقرب من باب السلام) وباب الفراديس . وفي المدينة شارع رئيسي عريض يمتد

---

(١) حدث ذلك مرتين الأولى في عام ٨٥ قبل الميلاد أيام اليونان والثانية في عام ٣٥ بعد الميلاد أيام الرومان .



رقم – ١ – مخطط المدينة كما كانت عليه في العهد الروماني . توصل الى وضعه علماء الآثار اعتماداً على ما عثروا عليه من بقايا منشآت ذلك العهد وآثار خططه الباقية إلى



اللوح رقم — ٤ —
المخطط الحديث لمدين
ويظهر فيه مدى تو
المدينة وكيفية تو
المباني التاريخيه البا
الى اليوم في أنحائ

من الغرب إلى الشرق وينحصر بين باب الجابية وباب شرقي ويطلق عليه في تنظيم مدن ذلك العصر اسم Decumanus طوله ١٥٠٠ متراً وعرضه ٢٥ متراً وكان يتألف من طريق واسع في الوسط يقابل فتحة الباب الوسطى ورواقين جانبيين مسقوفين يقابلان الفتحتين الصغيرتين للبابين الشرقي والغربي تحملها الأعمدة الكورنثية الجميلة التي يظهر بعضها من حين لآخر خلال أعمال الحفر والبنـاء في الشارع . وكانت المخازن التجارية موزعة على طول هذا الشـارع وراء أروقته .

وكان هذا الشارع الجميل مزيناً بالتماثيل ، أدرك العرب أحدها وكان يتوسط الشارع ، عمود عليه تمثال رجل باسط ذراعيه ، وآخر على رأسه مثل الكرة فيهـا حديد[1] . وكانت تقطع هذا الشـارع أقواس النصر ، ظهرت إحداها منذ أعوام وكان على عمق ٤٥٠ سم من سطح الأرض الحالي بسبب ارتفاع سوية الشارع خلال العصور . وقد عمدت مديرية الآثار عام ١٩٥٠ الى ترميم هذه الآبدة ورفعها الى مستوى الشارع . وهي قوس هامة وجميلة تحتفظ بإحدى فتحاتها كاملة وبعض الأعمدة التي تزينها ، نعتقد بأن هذه القوس هي التي يسميها ابن عساكر بقنطرة سنان . وحدثتنا المصادر عن وجود قوس أخرى إلى الغرب من هذه القوس تهدمت في القرن الثاني الهجري واستخدمت أحجارها في البنـاء كما ذكر المؤرخ ابن كثير[2] .

على أن الآبدة الهامة التي خلفها العصر الروماني في دمشق هي معبد جوبتير ، فكان من أشهر المعابد في العـالم القديم ، من حيث سعته وفخامة بنائه وكأنه بأبوابه وأسواره مدينة حصينة ، وكذلك عرفه العرب وأطلقوا عليه حصن دمشق أحياناً والمدينة الداخلة أحيـاناً أخرى ، معتبرين أسواره الخارجية هي أسوار المدينة اليونانية التي نسبوا بنـاءها الى غلام الاسكندر ، كما جاء في رواية ابن عساكر[3] . لقد بني هذا المعبد على أنقاض المعبد الآرامي وأسهمت في هندسته التقاليد المعمارية الشرقية إلى جانب فن العمارة الغربي الكورنثي ، ولا بد

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤ / ٢١٧ .

(٢) البداية والنهاية ٧ / ٢١ .

(٣) تاريخ دمشق المجلد الأول ص ١٤ و ١٦ .

أنه صمم وبني من قبل مهندسين وصنـاع دمشقيين كانت دمشق تشتهر بهم . وما تزال بعض أوابد روما تشهد ببراعة المهندس « أبو لودور الدمشقي » الذي نبغ في القرن الثاني الميلادي وبنى في أنحاء الامبراطورية عديداً من المنشآت المشهورة .

وشيدت في الشرق من المدينة (الاغورا) أو السوق العامة وشق بينها وبين المعبد شارع واسع له أروقة فخمة ما تزال تشاهد كثير من أعمدته . ولم يعد بانياس يكفي هذه المدينة الواسعة فعزز بقناة (Aqueduc) استمدت مياهها من مياه بردى أيضاً ، وحملت بعض أقسامها قناطر لا تزال تشاهد في حي القنوات غربي المدينة ، وخصصت الأراضي الواقعة في الشمال الشرقي بعيداً عن الأسوار مقبرة (Necropole) لدفن الموتى واتصلت المدينة بالعالم الخارجي بشبكة طرق مرصوفة تخرج من أبوابها إلى مختلف الاتجاهات .

وهكذا ظهرت مدينة دمشق في ذلك العصر مدينة على النسق الروماني المطبوع بطـابع القوة والجمال .

ومرت القرون وجاء العهد البيزنطي المسيحي ولم يحدث شيء ذو بال في نظام المدينة ، سوى أن معبد جوبيتر تحول إلى كنيسة للقديس يوحنا في آخر القرن الرابع ، واحتلت بعض المنشآت الفضاء الكائن بين سوري المعبد وأحدثت أسواق ذات أروقة تصل بين أبواب المعبد الداخلي وبين أسواره الخارجية ، يشاهد جانب منها عند البابين الشمالي والغربي للجامع الأموي وظلت الأروقة ذات الأعمدة في النـاحية الجنوبية الممتدة من باب الزيادة في الجامع الأموي باتجاه الجنوب باقية حتى القرن التـاسع عشر ، شاهدها السائح الانكليزي بورتر عام ١٨٥٥ وعد منها اثني عشر عموداً فقدت جميعها فيما بعد .

وفي العهد البيزنطي ظهرت الكنائس والأديرة كمنشآت معمارية جديدة وشيد منهـا حوالي خمس عشرة كنيسة داخل الأسوار وخارجها .

وقد عرفنا اسماء بعض هذه الكنائس ومكانها ، فكنيسة ماريوحنا كانت تحتل ركناً من أركان معبد جوبيتر ثم هدمت عند بناء الجامع الأموي ، وكنيسة المصلبة التي ربما يعني اسمها أن مخططها كان على شكل الصليب كبعض الكنائس البيزنطية المعروفة في جهات أخرى من سورية (كنيسة دير سمعان مثلاً) ، وكانت تقع داخل السور بين باب شرقي وباب توما وقد

تهدمت في أيام صلاح الدين . وكنيسة المقسلاط في منتصف الشارع المستقيم محمولة عليه بقناطر ضخمة ، ذكر ابن كثير أنها سقطت عام ٦٤٦ / ١٢٤٨ م فتهدم بسببها دور ودكاكين كثيرة وكان بقربها التمثال الروماني الذي أشرنا اليه . ثم كنيسة مريم الواقعة داخل باب شرقي حيث توجد الكنيسة المريمية حالياً ، أدركها الرحالة العربي ابن جبير في القرن الثاني عشر الميلادي فقال عنها انها أعظم كنائس دمشق تتضمن من التصاوير أمراً عجباً ، وقد تهدمت أيام الظاهر بيبرس . ثم كنيسة بولص وكنيسة اليعاقبة عند باب توما .

هذه الكنائس البيزنطية العديدة لا نعرف عنها شيئاً اليوم ، بعضهـا اندثر وبعضها تجدد ولعلها لا تختلف كثيراً من حيث الفن المعماري عن مثيلاتهـا الكثيرات في أماكن أخرى من البـلاد ، والتي ما تزال باقية على درجات متفاوتة من الكمال ، في الشمال حيث دير سمعان وقلب لوزة ورويحة ورفادة وفي الجنوب حيث كنائس ازرع وبصرى وجبل الدروز ، والسبب في بقاء هذه وزوال تلك أن المبـاني في المدن عندما تتهدم لا تترك وتهجر كما هو الأمر في القرى والأماكن المنعزلة ، بل تسرع إليها أيدي البنائين فيأخذون أحجارها ليبنوها من جديد بناء يمثل روح العصر وحاجاته ويضيع الأصل المهدوم ، وما ذلك إلا لغلاء الأرض وضيقها في المدن في كل زمان .

وأما الأديرة فقد كانت عديدة في أطراف المدينة وضواحيها . اشتهر من بينها دير مرّان في سفح قاسيون الغربي قريباً من الربوة حتى أن اسمه اطلق في العهد العربي على الجبل نفسه ، فتذكر الروايات أن الوليد توفى بدير مران أي في هذا المكان من جبـل قاسيون وليس في الدير نفسه . ودير سمعان ودير النساء كانا في منطقة الفراديس في شمال المدينة ، ودير الحوراني في الجنوب . ومن المؤكد وجود قصور وجواسق على سفح قاسيون وفي الغوطة أحدها كان للحاكم البيزنطي ، فقد ذكرت المراجع العربية قصراً في قاسيون يسمى قصر هرقل صار يدعى في العهد السلجوقي بقصر شمس الملوك ، ونزله صلاح الدين الأيوبي ، وقد تغيرت حاله في القرن الرابع عشر الميلادي حين شاهده المؤرخ العمري فقـال انه تهدم ولم يبق منه إلا الجوسق والحمام . وكان للغساسنة قصر في قلب دمشق يدعى البريص كان يؤمه العرب وينزلون ضيوفـاً فيه على أمراء الغساسنة . تحدث عنه الشاعر حسان بن ثابت فقـال في قصيدة له في مدحهم :

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

والمعروف أن جلق لقب من ألقاب دمشق عند العرب — وقد أكدت وجود هذا القصر في دمشق نفسها رواية البلاذري وهو من أوائل المؤرخين العرب المسلمين — والتي تشير إلى أن موقع القصر عند « المقسلاط » أي في وسط الشارع المستقيم حيث كانت الكنيسة المار ذكرها.

المدينة في العهد الاموي

ومنذ السنوات الأولى للفتح الاسلامي أخذت المدينة تتحول تدريجياً إلى مدينة عربية مسلمة ، وحل أمراء العرب وكبراؤهم في الدور والقصور التي أخلاها أصحابها البيزنطيون من حكام وقواد وبذلك توزع المسلمون في جميع أنحاء المدينة ولم يكن لهم أحيـاء خاصة بهم وأحياء خاصة بالمسيحيين كما سيحدث فيما بعد . ودليلنا على ذلك أن ابن عساكر يعدد دوراً للصحابة كانت في أحياء باب توما وباب شرقي وهما من الأحياء المسيحية منذ قرون كما أنهم شاركوا المسيحيين في المعبد القديم ، وأصبح يضم كنيسة النصارى في الجانب الغربي ومسجداً للمسلمين في الجانب الشرقي وأقيمت طقوس العبادتين في بناء واحد ، وظلت هذه الحال من الجوار بين العبادتين أكثر من نصف قرن إلى أن شرع الوليد في تحقيق مشروعه المعماري الضخم فهدم كل ما كانت تضم جدران المعبد بعد تسوية أمر الكنيسة مع رعاياها وفق مبادىء العدل والانصاف . وقد سبق ذلك مفاوضات طويلة بدأت منذ أيام عبدالملك والده . والسبب في تنفيذ هذا المشروع المعماري الضخم أمران ، الأول ميل الوليد إلى الانشاء والعمران ورغبته في اعطاء دمشق التي عُدت عاصمة لأعظم امبراطورية في ذلك التاريخ ، ما هي جديرة به من الانشاءات الضخمة . والأمر الثاني هو ازدياد عدد المسلمين ، وعجز الجامع الأول عن الاتساع للمسلمين الجدد . فالتطور الاجتماعي الذي حدث كان لا بد أن يجد صداه في تطور المدينة العمراني ، فكان يزداد عدد المسلمين على الدوام ، ويقل عدد المسيحيين ، بعد أن كان المسلمون قلة عند الفتح أخذ يزداد عددهم بما كان يفد على دمشق من العرب المسلمين ، وبمن كان يدخل في الإسلام من

(١) حدث الفتح عام ١٤ للهجرة و ٦٣٥ للميلاد .

نصارى دمشق . ولا نفسر هذه الظاهرة الأخيرة كما فسرها المستشرقون بأن سببها كان للتخلص من الجزية القاسية المفروضة على الرعايا غير المسلمين . لأنه لا يعقل أن يترك الإنسان دينه من أجل دريهمات . لقد كانت الجزية كما اتفق عليها أكثر المؤرخين [٤٨] درهماً في العام للأغنياء وأقل من ذلك لغيرهم ولم تفرض ظلماً وعدواناً وإنما كانت كبدل خدمة العلم في يومنا هذا تماماً . بدليل إعفاء الشيوخ والنساء والأطفال منها . ولكن التفسير الصحيح لهذه الظاهرة هو أن أهل دمشق لمسوا في النظام الجديد ما أدهشهم ، وجدوا فاتحاً يقيم فيهم التسامح والعدل ويخدم أرواحهم وأموالهم ويمنحهم حرية العبادة للتي لم يكونوا ليحصلوا عليها في عهد الحكام البيزنطيين المسيحيين أنفسهم ، لاختلاف بين الطرفين في المذهب والرأي .

ثم تطورت الأحداث عن طريق التعايش السلمي والتعاون التام بين المسلمين والمسيحيين ، واطلع هؤلاء على حقيقة الدين الجديد ونظروا فرأوه ينتشر شرقاً وغرباً انتشاراً لا مثيل له ورأوا العز والمجد والسؤدد الذي حققه للعرب ، فمالوا إليه ودخلوا فيه عن إيمان أحياناً وطلب لمغنم تارة أخرى .

نعود إلى الوليد وإلى جـامعه لنراه يقضي في تشييده عشر سنين وينفق عليه الأموال الطائلة ، ويجتذب اليه المهندسين والفنانين من مختلف أنحاء الدولة ليسهموا في بنائه . وفعلاً فقد كان أول آبدة عربية حقيقية وإحدى العمائر الشهيرة في العـالم ، وبه وضعت مبـادىء الفن الإسلامي وأسس العمارة العربية ، وإن كان لا يخلو من تأثر بالفنون السابقة من حيث الهندسة والزخرفة فهو من ناحية أخرى نتاج دراسة جديدة وتعبير عن حاجات ورغبـات فرضتها روح العصر ومفهوم الدين الجديد والنفسية العربية . فهو في رأينا مؤسسة حديثة قائمة بذاتها في الهندسة وفن البناء ، فيه قبس من الفنون السابقة وفيه تجديد وابتكار ولقد أصبح مدرسة للعمارة تتلمذ فيها المهندسون في بناء المساجد في سائر أنحاء العالم .

ويحسن هنا أن نشير إلى الأثر المعنوي الذي أحدثه هذا البناء في نفوس الأعداء فنسوق هذه القصة التي يرويها المؤرخ ابن عساكر ملخصة فيما يلي : جاء وفد الدولة البيزنطية إلى دمشق لزيارة الجامع بعد أن اكتمل بناؤه فوصل في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز وبلغت الدهشة

بالوفد أن أحدهم أغمي عليه مما رأى وشاهد ، فلما أفاق سئل عما أصابه فقال كنا نظن نحن البيزنطيين بأننا سنعود إلى هذه البلاد وأن الفتح عملية غزو موقتة ، وإذا بنا ، بعد أن شاهدنا هذا المشروع الضخم ندرك بأن العرب باقون فيها إلى الأبد . ولئن أطلت قليلا في الحديث عن مشروع بناء الجامع فلأنه الآبدة الوحيدة التي بقيت للعصر الأموي في دمشق ، والتي يمكننا أن نفهم بواسطتها روح ذلك العصر واتجاهاته في الفن والعمارة . ونعتقد بأن المسلمين في العهد الأموي اكتفوا بهذا الجامع الكبير لعبادتهم ، سوى أنهم أقاموا مصلّى العيد وفق تقاليد السنّة خارج المدينة ، حيث يوجد جامع المصلى الكائن في محلة الميدان اليوم . وكان يخرج إليه يزيد بن الوليد يوم العيد في صفين من الجند شاكي السلاح . ثم أخذوا في التجمع حول الجامع الأموي واشادة المباني والقصور والمحال العامة في الساحة الواسعة المحيطة بالمعبد القديم والتي بدىء باحتلالها منذ العصر البيزنطي . فشيد معاوية داره التي عرفت بدار الأمارة وبقصر الخضراء أيضاً نسبة إلى القبة الخضراء التي كانت فيها وكانت إلى جوار الجدار الجنوبي للجامع وتتصل به بباب خاص . ويروي ابن عساكر مؤرخ دمشق في القرن الثاني عشر الميلادي « أن معاوية بناها بالطوب فلما فرغ منها قدم عليه رسول ملك الروم فنظر إليها فقال معاوية كيف ترى هذا البنيان قال أما أعلاه فللعصافير وأما أسفله فللنار قال فنقضها معاوية وبناها بالحجارة » (١) .

هذا كل ما نعرفه عن أول بيت عربي في دمشق ، وتشير الروايات إلى أن للدار جناحاً خاصاً بأهل الخليفة ، وجناحاً آخر يستقبل فيه رجال الدولة ويتناول طعامه فيه ويخرج منه للصلاة في الجامع . وتحولت الدار بعده إلى دار للملك يقطنها من يتولى الخلافة من بني أمية ثم تهدمت في الانقلاب العباسي وأصبح مكانهـا دار للشرطة وضرب النقود كما شاهد ذلك الرحالة المهلبي في القرن الرابع (العاشر الميلادي) . ثم يأتي عليها حريق ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م مع الجامع الأموي فتزول آثارها نهائياً ويتحول مكانها منذ عام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م إلى سوق للصاغة . وكانت دار عبد العزيز بن مروان وابنه الخليفة عمر بحذاء جدار الجامع الشمالي مكان المدرسة الشميساطية اليوم . ونعرف قصراً كان لهشام بن عبد الملك في مكان المدرسة المجاهدية داخل باب الحرير أي في سوق القلبقجية وقصوراً أخرى بنيت خارج السور أحدها ينسب إلى الحجاج بن عبد الملك وقد أطلق اسمه على الحي الذي نشأ بعد ذلك حول هذا القصر . وقصر عاتكة بالقرب منه ويسمي الناس الحي بقبر عاتكة وكان يعرف في الماضي بحي قصر عاتكة .

(١) ابن عساكر تاريخ دمشق المجلد الثاني ص ١٣٤ .

على أن كل هذه القصور زالت واندثرت وتعذر علينا أن نعرف عنها شيئاً بخلاف قصورهم العديدة التي شيدوها خارج العاصمة ، في البادية وفلسطين والتي تمكن المنقبون من دراسة ما فيها من هندسة وتنظيم رائع وما حوته من آثار الترف والبهجة متجلية في زخارف الفسيفساء والرسوم الملونة (الفريسك) والنقوش الحجرية المتقنة . وهذه القصور أكثر من أن تعد .

كان الخلفاء والأمراء الأمويون يحرصون على اشادة هذه القصور للنزول فيها من وقت لآخر في الربيع والخريف لينعموا بهواء البادية النقي ويعيشوا مع اللغة العربية الصافية ثم انهم يتخففون بهذا الارتحال من اعباء المدنية وتقاليدها الحازمة وينالون شيئاً من متعة اللهو والصيد والمرح . وقد عبرت المواضيع الزخرفية التي حفلت بها أكثر هذه القصور كمناظر الصيد والرقص والموسيقا وغيرها عن هذا النوع من الحياة المرحة . ومن الطبيعي أن لا تنطبق هذه الصفات على سائر الأمراء الأمويين وخاصة ممن عرفوا بالجد والدأب كمعاوية ومروان وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز الذين وطدوا أركان الدولة وواصلوا أعمال الفتوح أو مالوا إلى التقشف والزهد . فأكثر هذه القصور تنسب إلى الوليد وهشام ويزيد أولاد عبد الملك الذين طال حكمهم واشتهروا بميلهم إلى الانشاء والتعمير . ويقال أن الناس إذا التقوا ببعضهم في أيام الوليد وهشام كان حديثهم عن العمارة وفنون البناء . والذي نستيقنه أن مدينة دمشق في العهد الأموي كانت بأبدع حالة وأجملها بعد أن نعمت بالمركز الممتاز والخير العميم والازدهار الاقتصادي . ويحدثنا المؤرخون عن أحواض المياه والنوافير والسقايات Fontaine التي كانت منبثة على أطراف الشوارع وعلى أبواب المباني العامة وفي الأسواق والساحات العامة وأبواب المدينة . وقد عدد ابن عساكر عشرين منها كانت باقية إلى عهده يرجع أكثرها إلى عصر بني أمية . كما شيدت الحمامات والفنادق في داخل المدينة وخارجها وبنيت القيساريات . وهي أبنية كبيرة تضم سوقاً خاصة بمهنة من المهن ، شبيهة بالخان التجاري وينسب إلى الوليد عنايته ببناء المستشفيات . ومن المباني العامة دار الخيل التي بنيت أمام قصر الخضراء إلى الغرب من سوق الصاغة . وأخيراً فان استتباب الأمن وما حصلت عليه دمشق بكونها عاصمة الامبراطورية من رخاء وازدهار كان لا بد من أن يؤدي إلى اتساع المدينة . وبدأت منذ ذلك العهد تنشأ أحياء سكنية خارج الأسوار أخذت تنمو وتكبر كلما ساعدتها الظروف . ونشأت في أطراف المدينة وضواحيها مراكز سكنية عرفت بمنازل القبائل وامتد البناء على ضفاف بردى

وسفوح قاسيون وظهرت الجواسق والطوادم وشق في عهد يزيد بن معاوية نهر يزيد فساعد هذا النهر على امتداد الخضرة والعمران إلى أعالي السفح ، فضلاً عن إحياء عدد من القرى في الشمال من دمشق وارواء الجواسق والمنازل التي اقيمت على ضفافه والتي سنعدد بعضاً منها . وقد تخربت المنازل والأرباض في الفتن والحروب التي تلت العهد الأموي . قال ابن عساكر بشأنها : « وقل موضع حفر إلا وجد فيه أثر العمارة من سائر أطراف البلد » . وذكر منها في الجنوب الشاغور ، والمنية (الميدان) ، وقصر حجاج ، وعاليه وعويله (عند القدم) . وفي الغرب القنوات ، وقينية ، ولؤلؤة الكبرى ، ولؤلؤة الصغرى ، وصنعاء ، والنيربان غربي الربوة ، والمزة . وفي الشمال بيت لهيا والسبعة أنابيب (عند القصاع اليوم) والفراديس .

وكان هناك ميدانان عامان أحدهما في الجنوب وهو ميـــدان الحصى والآخر في الغرب ويعرف بالمرج الأخضر حيث أقيمت مدينة المعرض الدولي في أيامنا هذه . وكانت تقام فيهما حفلات السباق للخيل والفروسية التي أغرم بها الأمويون وخاصة عبد الملك والوليد . وهكذا كانت هذه الرياض الغناء والجواسق البديعة التي تحيط بدمشق تفيض بالحيوية والنشاط . تغنى بها شعراء كثيرون وألهمت الفنانين والصناع فظهر أثر ذلك في انتاجهم الذي نجد له مثلاً حياً في فسيفساء الجامع الأموي الرائعة .

ولنستمع بهذه المناسبة لأحد الرحالة يصف لنا الطبيعة في دمشق قال المهلبي ، وهو ممن زاروا دمشق في القرن العاشر الميلادي : « بظاهر دمشق وادي البنفسج ونهر بردى يشقه ، مكان مملوء بشجر السرو لا تصل الشمس إلى أكثر أرضه ، وبدمشق عدة ألوان من الورد منها أصفر ابريز وأسود وسماقي وورد موجه للورقة لونان من خارجها وداخلها . وليس الزهر على وجه الأرض ببلد أكثر منه بدمشق[١] » . ولا بد أخيراً لاستكمال البحث من ذكر المقابر التي حدثت خارج أبواب المدينة اشتهر منها ثلاث الأولى مقبرة باب توما في الشرق والتي تعرف اليوم بالشيخ رسلان . والثانية عند الباب الصغير في الجنوب وتضم قبور عدد من الصحابة والخلفاء الأمويين ثم مقبرة باب الفراديس في الشمال .

(١) انظر قائمة المصادر في آخر المقال .

المدينة في العهدين العباسي والفاطمي

وبانتهاء العهد الأموي ينتهي العصر الذهبي الوحيد الذي حظيت به دمشق في حياتها، ويبدأ العصر العباسي باحتلال عسكري يعبر فيه أعداء الأمويين عن نقمتهم وحقدهم فيهدمون أسوار المدينة، ويقلعون حجارتها، وتستباح حرمة الجامع الأموي ومقابر الخلفاء، وتدمر القصور والمباني العامة.

وتغدو دمشق منذ ذلك اليوم مدينة ثانوية في أطراف الدولة. ومن الطبيعي أن يصاب المد العمراني بالانتكاس، وتذوي المشاريع والمنشآت التي تتطلبها العواصم في العادة، فضلاً عما تعرضت له المدينة من دمار في فترات الثورات والحصار، فشبت الحرائق أكثر من مرة في أحيائها وأرباضها، ولم ينج من إحداها الجامع الأموي نفسه، فاحترق حريقاً شاملاً عام ٤٥٨ هـ ١٠٦٥ م ويبدأ عدد السكان بالتناقص تدريجياً، ويبدأ عصر وسيط قاتم يشتد ظلاماً قرناً بعد قرن حتى يبلغ أوجه في القرن الخامس (الحادي عشر الميلادي).

ونفتش بين أحياء المدينة وثناياها باحثين عن أثر عمراني يعود إلى هذه الحقبة فلا نكاد نجد شيئاً ذا بال. ويزعم المؤرخون أن قبة الخزنة القائمة في صحن الجامع الأموي رغم ما توحي به عمدها وجدرانها وفسيفساؤها من كونها لا تختلف عن الفن الأموي في شيء، رغم ذلك فانهم يكادون يجمعون على انها بنيت في خلافة المهدي في حدود ١٦٠ هـ/٧٧٦ م ثم نفتش فنجد محراباً كان يخص مسجداً من العهد الفاطمي في حي الميدان جنوبي دمشق، يدعى مسجد فلوس (١)، ويمتاز هذا المحراب بزخارف وكتابات كوفية مشجرة، معمولة بالجص وفق الأسلوب الفني لذلك العصر. ونجد أيضاً ضريحين هامين أحدهما من الحجر والآخر من الخشب المحفور ما يزالان باقيين في مقبرة الباب الصغير الأول للسيدة فاطمة والثاني للسيدة سكينة من آل بيت الرسول ﷺ ثم تحدثنا الروايات التاريخية أيضاً عن قصر عباسي يعرف بقصر السلطنة أو قصر الولاة، بني خارج المدينة ليكون دار امارة بعد أن هدم قصر الخضراء الأموى، وقيل انه كان يتسع لألوف من الناس، فهو اذن كحصن ينزله الوالي وحاميته الكبيرة

(١) ويسميه الناس اليوم أبو الفلوس وقد تحول حديثاً الى زاوية الرفاعي.

وقد ظل هذا القصر عامراً ينزله كل من ولي دمشق من العباسيين والفاطميين إلى أن كان عام ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ – وثار أهل دمشق على أميرها الفاطمي بدر الجمالي فأحرقوا القصر ونقضوا أخشابه وشمله الخراب . ومعنى ذلك أنه كان مبنياً من الخشب واللبن . ولعله نفسه هو الحصن الذي اشار اليه الرحالة (المقدسي البشاري) الذي زار دمشق في حدود ٣٦٥ هـ بقوله : « وعليها حصن بني وأنابها من طين » سوى أن القصر في رأي المؤرخين بني في العهد العباسي وليس في العهد الفاطمي ، وبما انه لم يكن في عهد المقدسي أية بناء هام آخر سوى هذا القصر القديم فنرجح ان يكون هو نفسه الذي تحدث عنه المقدسي وسماه حصناً وكان يجري وقتئذ تجديده أو اصلاحه.

على أن العباسيين لم ينسوا دمشق كل النسيان وظلت تستهويهم بما لها من ماض مجيد وجمال أخاذ ، فشدوا الرحال اليها لزيارة جامعها والتنزه في مغانيها ومرابعها الخضر .

زارها المهدي ثالث خلفاء العباسيين ثم الرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل ، وفكر الواثق بنقل العاصمة اليها . قال ابن عساكر : لم يزل ملوك بني العباس تخف إلى دمشق طلباً للصحة وحسن المنظر . أقام بها المأمون وأجرى اليها قناة من نهر منين [1] . إلى معسكره بدير مرّان [2] وبنى القبة التي في أعلى جبل دير مران ، وصيرها مرقباً ، يوقد في أعلاه النار لكي ينظر إلى ما في عسكره إذا جن عليه الليل ، وكان ضياؤها يبلغ إلى ثنية العقاب [3] وإلى جبل الثلج (أي جبل الشيخ أو الحرمون) » .

وقال أيضاً « صار المأمون الى دمشق وهو رقيق فغلظ « وأخذ بعض اللحم » وقال : إن المأمون كان بدمشق في طارمة له (أي مقصورة عالية) ، والثلج يسقط عليه ، فأصحر يده للثلج ساعة التذاذاً به [4] » . ومن المعروف تاريخياً أن المأمون زار دمشق مرتين بغرض اخماد الثورات والفتن : الأولى كانت عام ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م والثانية بعد ثلاث سنوات وزارها المتوكل عام ٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م فخلد شاعره البحتري هذه الزيارة بقصيدة مطلعها :

العيش في ليل داريا إذا بردا   والراح نمزجها بالماء من بردى

ومن العهد الفاطمي بوجدنص تذكاري يتألف من عشرة أسطر ، منقوش بالخط الكوفي على صخرة عند الربوة في المكان المعروف بالمنشار ، وهو مؤرخ بعام ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م .

---

(١) قرية الى الشمال من دمشق تبعد عنها حوالى تسعة عشر كيلو متراً .
(٢) المقصود هنا الجبل المطل على دمشق قرب الربوة حيث توجد اليوم قبة السيار والدير كان أسفلها .
(٣) موقع على طريق حمص عند مفرق الطريق الآخذ الى الضمير وبغداد .
(٤) تاريخ ابن عساكر ، ٢/١٦٦ .

ونوجح بأن مخطط المدينة المنظم الذي وضعت خطوطه في العهدين اليوناني والروماني وحوفظ عليه في العهد الأموي . أخذ منذ هذا العصر يتبدل وتتغير معالمه وتسوده الفوضى ، ويصبح للمدنية طابع القرون الوسطى بأحيائها المؤلفة من أزقة فرعية متعرجة كان يطلق عليها كلمة (درب) تحف بها بيوت مؤلفة من طبقات ثلاث ، وهذا ما يفسر لنا قول المقدسي حين وصف دمشق في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بأن « أزقتها غامة » . وكذلك قول ابن جبير في القرن السادس (الثاني عشر الميلادي) — : « سككها ضيقة مظلمة » .

وإلى جانب مركز المدينة الرئيسي — Cité — أو المدينة كما سيطلق عليه في المستقبل والحاوي على المؤسسات العامة المحيطة بالجامع الكبير ، الذي ظل طيلة خمسة قرون هو الجامع الوحيد للمدينة بالاضافة إلى مئات المساجد . (يجب التمييز هنا بين مفهوم الجامع ومفهوم المسجد . فهذا الأخير بناء بسيط فيه مصلى صغير ولا تقام فيه صلاة الجمعة في الأصل) . وكذلك الاسواق الرئيسية المخصص كل منها بمهنة من المهن أو سلعة من السلع دون غيرها . بينما زودت الاحياء البعيدة عن المدينة بالعناصر المعاشية والمؤسسات المحلية الضرورية ، ففيها مسجد صغير أو أكثر وحمام وفرن وسوق أو سويقة لبيع مختلف الحاجيات . وبذلك ينشأ نوع من الاستقلال والاكتفاء الذاتي في كل حي ، وحدث في المدينة مع الزمن تكتل جماعي قام على أساس الأحياء فصار لكل حي تنظيم خاص به لتوفير الحماية والأمن لسكانه ، وتحصنت الحارات وراء الأبواب وأصبح أحياناً لكل زقاق باب . وندب لحماية الحي حرس قومي خاص كانوا يدعونهم في القرن الرابع الهجري (الاحداث) أي الفتيان ، وظلت هذه التقاليد مستمرة إلى أواخر العهد العثماني ، ولا تزال في دمشق نماذج من هذه الحارات والدروب وأبوابها .

ولعل هـــذا الاتجاه الانعزالي لأحياء المدينة البعيدة هـو السبب أيضاً في انتشار المساجد الصغيرة في كل مكان حتى أحصى منها المؤرخ ابن عساكر ٢٤٢ مسجداً داخل الأسوار و ١٧٨ مسجداً خارجها .

وفي هذا العصر أيضاً تغير مظهر الشارع المستقيم الروماني الفخم واحتلته الأسواق الصغيرة والأحياء السكنية وتحول إلى شارع ضيق ملتو لا يشبه الأصل في شيء . ولكنه ظل مكشوفاً بخلاف بقية الأسواق التي غدت ذات سقوف كما شهد بذلك المقدسي في القرن الرابع الهجري .

المدينة في عهد الاتابكة والايوبيين :

ومنذ قيام دولة السلاجقة وأتابكتهم في أواخر القرن الخامس (الحادي عشر الميلادي) ، بدأ نوع من الانتعاش في الحياة العمرانية ، وأول ما حدث في هذا المضمار هو بناء القلعة في الزاوية الشمالية الغربية للمدينة ، لتكون مقر السلطات الحاكمة أو دار الامارة في تعبير ذلك العصر وكانت المدينة مفتقرة اليها بعد زوال قصر الخضراء الأموي واحتراق قصر السلطنه العباسي كما مر معنا . وبدأت العناية باشادة أبنية خاصة للمدارس مستقلة عن الجامع الأموي .

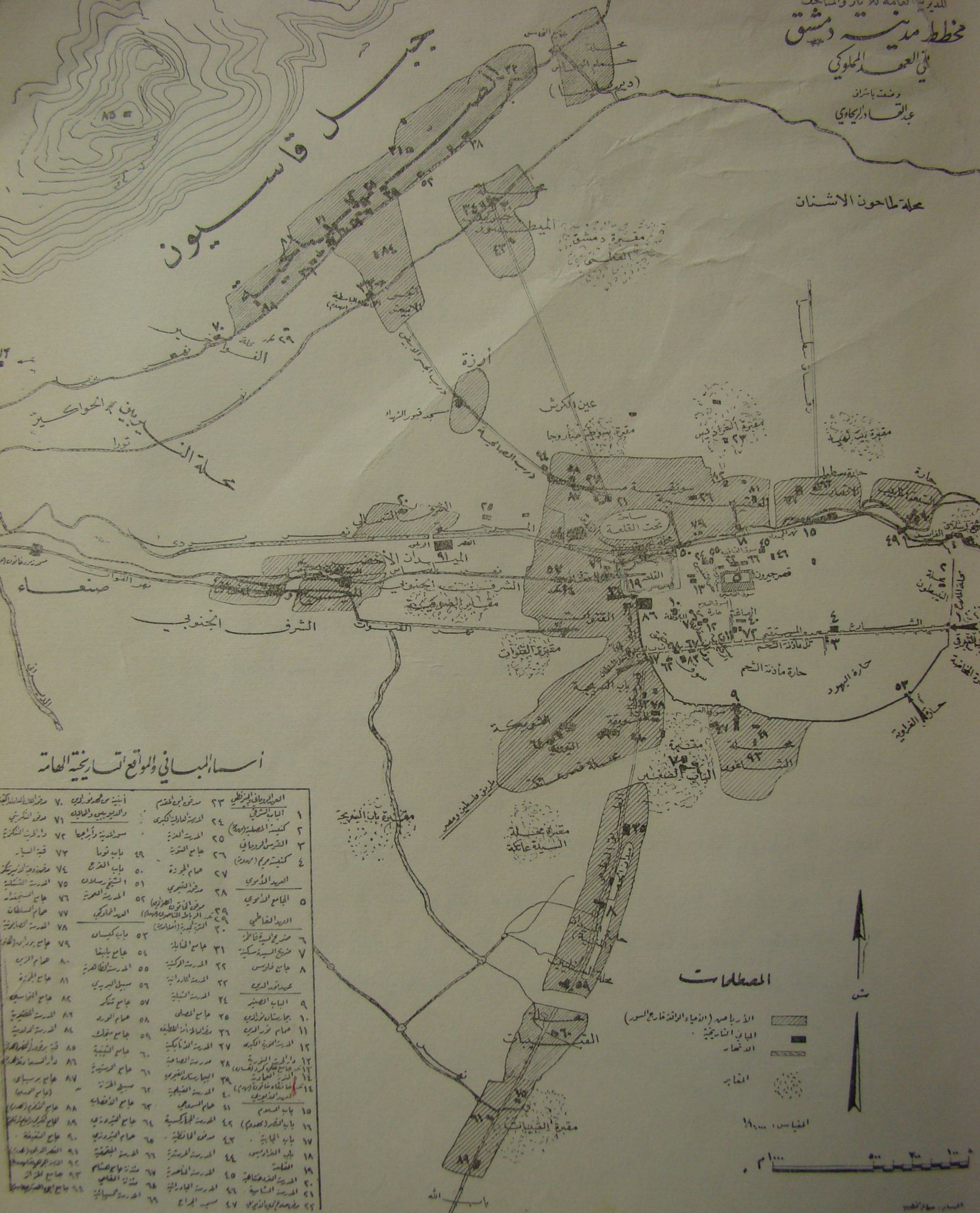
وحظيت المدينة في عهد نور الدين [١] بكثير من العناية من الناحية العمرانية فقد أعاد بناء السور الذي تهدم أكثره في الفتن والحروب وحصنه بالأبراج العديدة المستديرة ورمم أبوابه وفتح بوابات جديدة كباب السلام وباب الفرج ، وزود كل باب (بباشورة) وهي سويقة تقام أمام الباب لكي يتمون منها أهل المنطقة في أيام الحصار بشكل خاص . وزالت في عهده آثار الخرائب وبقايا الحرائق الناتجة عن العصور السابقة لتنهض مكانها المنشآت والمؤسسات العامة التي من أهمها البيمارستان النوري والمدرسة النورية ودار العدل وحمام البزورية وكلها باقية بحالة جيدة باستثناء دار العدل وتعتبر كلها من الأوابد العظيمة في دمشق .

وأخذت تدب الحياة شيئاً فشيئاً في الأرباض والضواحي ، فأقيم قصر شمس الملوك في موقع النيرب (الى الغرب من قصر الضيافة) وخانقاه الطواويس في الشمال الغربي من السور وخانقاه خاتون في الغرب وهذه المباني تشبه الأديرة أو الرباطات وهي مخصصة للصوفية والمسافرين وكان يضاف الى هذه المباني في الغالب مساجد ملحقة بها أو مدافن ذات قباب .

وبدىء منذ منتصف القرن السادس باعمار جبـــل قاسيون واقامة مدينة مستقلة عليه دعيت بالصالحية وأول من سكن بهـــا المهاجرون المقادسة الذين نزحوا إلى دمشق

---

(١) حكم بين عامي ٥٤٩ و ٥٧٠ هـ ـ ١١٥٤ و ١١٧٤ للميلاد .



وح رقم – ٣ – مخطط تقريبي للمدينة كما كانت عليه في أواخر عهد المماليك (أوائل القرن السادس عشر) وقد عينت مواقع الأحياء والأرباض والمباني المفقودة بصورة قريبة من الواقع اعتماداً على المصادر التاريخية

اثر كارثة فلسطين وسقوط القدس بيد الصليبيين عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م . وبدأوا أولاً باشادة ما يشبه المعسكر دعي بدير الحنابلة وذلك في أيام نور الدين زنكي ثم شيدت المدرسة العمرية إلى جواره . وحي آخر كبير أسس في هذا العهد خارج الاسوار هو حي العقيبة في شمال السور وصار في أواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر) يضم خمس مساجد وحمامان .

وبالرغم من انشغال الدولة الأيوبية [1] بالحروب الصليبية فقد استمرت الحركة العمرانية بالنمو ، بل بلغت حداً لا مثيل له في تاريخ دمشق ، نتيجة لتوفر الأمن والاستقرار من جهة وحماس أمراء البيت الأيوبي إلى العلم والدين من ناحية أخرى ، ويمكننا أن نخص من المباني والمؤسسات العامة الأيوبية ما يربو على المائة ، بقي منها إلى يومنا نيف وخمسون بناء ، توزعت في المدينة القديمة وفي أرباضها – Banlieux المحيطة بها من الشمال والغرب والجنوب ، ويبدو أن هذه الارباض قد نمت واتسعت وخاصة الصالحية التي امتدت من سفح قاسيون باتجاه الجنوب إلى أن اتصلت بالأسوار . ونشأت في الغرب محلة عرفت بحكر السماق حيث يمتد اليوم شارع النصر ، ويتضح لنا هذا الاتساع إذا ألقينا نظرة على مواقع المدارس الأيوبية المنتشرة في هذه الارباض كالمرشدية والجهاركسية والصاحبة والشبلية والركنية والشامية . ويشير جغرافي معاصر هو ياقوت الحموي إلى هذه الناحية خلال وصفه لمدينة دمشق فيقول : « والمساكن بها عزيزة لكثرة أهلها والساكنين بها وضيق بقعتها ، ولها ربض دون السور محيط بأكثر البلد يكون في مقدار البلد نفسه إلا من جهة الشرق مع ما يتصل بها من القبلة يسيرا » [2] . وفعلاً فإن المدينة لم تتجاوز الأسوار إلى اليوم في هذه الجهة التي يشير إليها هذا الجغرافي وهي في الشرق والجنوب الشرقي .

ولأول مرة بعد خمس قرون على بناء الجامع الأموي تشيد في دمشق جوامع بالمعنى الصحيح تقام فيها خطبة الجمعة ولكنها جميعاً كانت خارج الأسوار في الارباض النامية حديثاً كجامع الحنابلة في الصالحية والماردانية في الجسر الأبيض والجراح في الشاغور والتوبة في العقيبة وجامع المصلى .

---

(١) امتد حكم الأيوبيين بين عامي ٥٧٠ و ٦٥٨ للهجرة (١١٧٤ و ١٢٥٩ للميلاد) .

(٢) معجم البلدان ٣ / ٦٩ .

في الميدان . وحصلت الصالحية أيضاً على بيمارستان خاص بها هو البيمارستان القيمري ، على غرار البيمارستان النوري الخاص بالمدنية المركزية .

والمدينة القديمة هي الأخرى لم تحرم من منشآت عظيمة . وفي طليعتها القلعة التي بنيت من جديد بعد هدم القلعة السلجوقية ، وهي لا تزال إلى اليوم مفخرة فن العمارة العربي .

ومن هذه المنشآت أيضاً المدارس العديدة التي من أهمها العادليتان الصغرى والكبرى والبادرائية والناصرية والقيلجية والعزيزية والاقباليتان . ولا بد أن نذكر أخيراً انتشار بناء الترب بكثرة وهي قباب فخمة تتخذ مدافن لعلية القوم ويلحق بهـا مسجد أو مدرسة صغيرة . وكذلك الخوانق التي سماها ابن جبير الرحالة الأندلسي بالرباطات وقال « وأما الرباطات ويسمونها الخوانق فكثيرة وهي برسم الصوفية وهي قصور مزخرفة يطّرد في جميعهـا الماء » . وقد أحصى هذا الرحالة الذي زار دمشق في عهد صلاح الدين مائة حمـام وأربعين داراً للوضوء (دورة مياه) . وأن سوق الصياغ المشهور جنوبي الجامع الأموي والذي احترق في عام ١٩٥٩ بني في هذا العهد أيضاً على شكل قيسارية حلت محل سوق الصياغ العتيق .

المدينة في العصر المملوكي :

بلغت النهضة العمرانية أوجها في الفترة التي سبقت كارثة تيمورلنك حتى قال مؤرخ معاصر أن دمشق كانت قبل الكارثة أعمر مدن العالم وأجملها (١) .

كانت المدينة القديمة قد أخذت حظهـا من العمران في العهد السابق للماليك ولم يعد فيها مجال للتوسع أو لقيـام مشاريع عمرانية جديدة . وعند ما أريد اشادة مدرسة تضم مدفن السلطان الظاهر بيبرس بالقرب من الجامع الأموي اسوة بالسلاطين الأيوبيين اضطر الأمر لشراء دار عامرة وهدمها لتحقيق هذا المشروع .

واتخذ نواب السلطنة منذ بداية العهد المملوكي من دار العدل التي بناهـا نور الدين الى جنوب القلعة وخلف السور الغربي مقراً لهم وعرفت منذ ذلك التـاريخ بدار السعادة ، وقد

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ١٢/٢٢٧

احترقت هذه الدار مرتين على يد التتار وأعيد بناؤها . ذلك أن القلعة التي كانت بمثابة دار الامارة من قبل خرجت عن أمر الولاة في عهد المماليك وأصبح لها نائب مستقل يتبع السلطان مباشرة .

واذا فتشنا داخل الأسوار عن منشآت ترجع الى هذا العهد وجدناها ضئيلة جداً بالنسبة للعصر السابق . نذكر منها دار الحديث التنكزية ، وتربة زوجة الأمير تنكز والمدرسة الخيضرية ، والمدرسة الجقمقية (١) والمدرسة الجوهرية ، ومأذنة جامع هشام والقلعي وسبيل الخزنة ، وفق ما هو موضح في مخطط المدينة في العصر المملوكي المنشور مع هذا المقال .

ولكن الشيء الهام الذي حدث هو إعمار مناطق جديدة خارج الأسوار واتساع المدينة اتساعاً منقطع النظير ، وهذه الظاهرة هي نتيجة طبيعية لازدياد عدد السكان والازدهار الاقتصادي الذي حققته دولة المماليك في عهدها الأول والذي انعكست آثاره على الحركة العمرانية .

شهدنا في العهدين النوري والأيوبي ولادة ضواح « Faubourg » مستقلة عن المدينة ، ومع العهد المملوكي اتيح لهذه الضواحي أن تنمو وتتسع ، وتقام أحياء جديدة هنا وهناك ، حتى اتصل العمران بالأسوار واتحدت المدينة القديمة بأرباضها من الشمال والجنوب والغرب .

ان عدد الجوامع واماكن توزعها يعطينا فكرة سريعة عن هذا المد العمراني ، لأن الجامع وهو غير المسجد ، كما سبق أن شرحنا ، لا يمكن أن يقام في منطقة كثيفة السكان . .

فالسور الشمالي أُحيط بعدة جوامع هي من الشرق الى الغرب : جامع السقيفة على باب توما ومسجد القصب عند باب السلام ثم جامع الجوزة والمعلق في امتداد محلة العقيبة التي بلغت الأسوار الشمالية ثم جامع المؤيد وجامع يلبغا في محلة تحت القلعة . وجامعي السنجقدار وتنكز في محلة حكر السماق غربي المدينة وجامع الأفرم غربي الصالحية . وجامع التيروزي في باب السريجه . ومنجك والكريمي (الدقاق) والتينبية في الميدان ، والورد في سوق صاروجة .

هذه الجوامع العديدة كان لها أهمية أخرى من حيث أنها غيرت منظر المدينة العام بمآذنها الشاهقة الجميلة المنبثة في أنحاء المدينة بعد أن كانت من قبل منحصرة في مآذن الجامع الأموي وجامعين آخرين أو ثلاثة .

---

(١) انظر مقالنا عن هذه المدرسة في المجلد العاشر من هذه المجلة .

وقباب المدافن العالية التي ظهرت على نطاق واسع في هذا العصر هي أيضاً أحدثت تغييراً ملحوظاً في المنظور العام .

لنقدم الآن وصفاً سريعاً لأرباض المدينة وأحيائها الحديثه كما وصفها لنا مؤرخو العصر المملوكي . في بداية هذا العهد شيد السلطان الظاهر بيبرس قصره الأبلق في الميدان الأخضر حيث توجد التكية السليمانية اليوم ، وتبع بناء القصر إعمار المناطق المحيطة به والمعروفة يومئذ باسم المرجة ، فبنيت فيها سويقة تضم واحداً وعشرين حانوتاً تعلوها مساكن على عدة طبقات وتنتهي بمسجد يطل على نهر بردى وطاحون عرفت بالشقراء . وفي جنوبها نشأ حيان لسكن المماليك الأتراك بين نهري بانياس والقنوات عرفا باسم المنيبع والخلخال ، وفي كل منهما سويقة وحمام وفرن . وبين هذا الميدان والربوة كانت محلة النيرب . وكانت في ذلك العصر مختصة بسكن الرؤساء والأعيان وصار فيها سوق وجامع وحمام يسمى حمام الزمرد ، وكلنا يعرف هذه المنطقه قبل سنوات مهجورة خالية من أي عمران . وحتى الربوة كانت في ذلك العصر أكثر عمراناً من عصرنا . واليكم ماقدمه لنا في وصفها المؤرخ (أبو البقاء المصري) قال : « كان يذبح فيها يومياً خمسة عشر رأساً من الغنم عدا ما يجيئها من اللحم من المدينة وما يصاد من أنهارها من السمك . وكان فيها فرنان وثلاثة حوانيت لعمل الخبز وسوقان على ضفتي النهر وفيها جامع بخطبة وعدد من المساجد والمدارس ، وحمام ليس على وجه الأرض نظيره »(١) .

وفي مطلع القرن الثامن أحيا (الأمير تنكز) المنطقة المعروفة بحكر السماق ببناء جامعه الكبير وحمام أمامه وسويقة . وجاء بعده الأمير (يلبغا) فبنى جامعه في المحلة المعروفة تحت القلعة ، وكانت هذه المحلة تتمتع بشهرة فائقة ، كشهرتها اليوم وتضم ساحة واسعة تحيط بها الأسواق المختصة بالسلع والصناعات المختلفة وسوق الخيل وفيها دار البطيخ ودار الخضار أي ما يعرف في أيامنا بسوق الهال الذي يقوم اليوم في المنطقة نفسها . وكانت هذه الساحة تغص بالسياح والباعة المتجولين فلا تبين من كثرة الزحام ، وكانت فيها المطاعم والملاهي لا تفتر الحركة فيها ليلا ونهاراً . فوضع هذه المحلة منذ قرون كما يبدو من هذا الوصف لا يختلف كثيراً عن وضعها اليوم . وفي أواخر العهد المملوكي اخذت تظهر محلة جديدة الى جوارها هي محلة سوق صاروجه .

---

(١) نزهة الأنام في محاسن الشام ص ٨٣

وأما الصالحية فقد غدت مدينة كبيرة قائمة بذاتها، أحصي فيها في أواخر العهد المملوكي حوالي خمسمائة مسجد وعدة جوامع وعشر مآذن ونحو مائة مدرسة وعشرة خانات وعشرين حماماً وعدة أسواق وصفها ابن بطوطة فقال: ولها سوق لا نظير لحسنه.

أما في الجنوب فقد كان يتفرع من باب الجابية طريقان للقوافل أحدهما يتجه نحو الجنوب، نحو حوران والحجاز وهو طريق الحج وكان يعرف في الماضي بالطريق العظمي، نشأ على طرفيه في العهود السابقة حي الميدان ومحلة القبيبات. وينتهي الطريق في دمشق عند الموقع المعروف (ببوابة الله)، ثم يتجه الى الكسوة فحوران.

والطريق الثاني يتجه نحو الجنوب الغربي، وهو طريق فلسطين ومصر، ويمر في أول مراحله بقرية داريا. وقد نشأت باتجاه هذا الطريق في العصر المملوكي محلة السويقة ومحلة التيروزي بجامعها وحمامها المشهورين اللذين بناهما الأمير خليل التيروزي في أوائل القرن التاسع الهجرى. وأخذت تنشأ على هذا الطريق محلة أخرى هي محلة باب السريجة.

هذه صورة رسمناها للمدينة بأرباضها ومحالها واسواقها كما كانت في هذا العصر، ولا بد أن نذكر أخيراً ما كانت تتمتع به متنزهاتها العديدة من شهرة ونشاط. كانت موزعة بشكل خاص بين ضفاف بردى وتورا. وكانت النواعير تدور في هذه الأماكن فتروي الحدائق والبساتين وتملأ البرك والبحيرات، وحتى جامع تنكز كانت فيه ناعورتان فوق نهر بانياس المار في وسطه. وقد زودت مقاصف هذه المتنزهات بكل وسائل الراحة والخدمة للطعام والنوم، وكانت تظللها العرائش والسقائف، وتجري من تحتها الأنهار.

وكانت المدينة تلفت أنظار الرحالين بنظافتها، فكانت مزودة بشبكة مجاري للمياه الوسخة في أقنية عميقة تمر من فوقها اقنية المياه النظيفة، وكانت مياه البرك والبحيرات تفيض في هذه المجاري فتسوق ما فيها الى ظاهر المدينة لسقي الغيطان. وقد أحصي من الحمامات قبل كارثة تيمورلنك فكانت مائتي حمام.

وقد لاحظ الرحالة ابن بطوطة تنظيم شوارعها وأزقتها فقال: وكان لكل زقاق رصيفان في جنبيه يمر عليها المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك[1].

---

(١) رحلة ابن بطوطه ص ٦٣

المدينة في العهد العثماني

لم تلق دمشق خلال أربعة قرون من الحكم العثماني[١] ازدهاراً عمرانياً يمكن مقارنته بالذي حدث في فترة العهد الأيوبي على قصرها أو خلال العهد المملوكي رغم كثرة ما نزل خلاله من الكوارث بأبنية المدينة .

وتجدر الملاحظة إلى أن أكثر ما نشاهده اليوم من الأوابد العثمانية انما يعود الى أوائل هذا العهد أي إلى القرن العاشر (السادس عشر م) وكأن هذه الفترة كانت امتداداً للعهد المملوكي . فلقد سار السلاطين الأول وبعض الولاة العظام القلائل على السنة المتوارثة في تخليد عهدهم بأبدة تبقى بعدهم ، فأضافت هذه المباني على قلتها شواهد جديدة الى تاريخ الفن والعمارة في دمشق . اما من ناحية تخطيط المدينة ووضعها العام فلم يطرأ تغير يذكر قبل القرن الأخير . وأكثر ما حدث كان مركتزا على الأسواق ، انسجاماً مع الحركة التجارية وما لقيته من نشاط بسبب مواسم الحج .

وإذا تتبعنا تلك الحركة العمرانية منذ بدايتها شاهدنا أربع مجموعات معمارية شهيرة شيدت كلها خارج الأسوار . أولها في الصالحية أنشأها السلطان سليم بعد فتح دمشق مباشرة وتتألف من تكية مستقلة لطبخ الطعام وتوزيعه على الفقراء وجامع وتربة على ضريح الشيخ محيي الدين . وكان هذا العمل العمراني تقدمة لروح هذا الشيخ الذي كان يكن له السلطان احتراماً خاصاً .

والمجموعة الثانية هي التكية السليمانية والمدرسة المجاورة لها انشأهما ابنه سليمان القانوني[٢] في الميدان الأخضر على ضفاف بردى في مكان قصر الظاهر بيبرس السابق (القصر الابلق) وتضم مدرسة وجامعاً ومطعما ومهجعاً وغرفاً للنزلاء وسوقا .

وبعد سنوات قلائل أي في سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م ، شيد الوالي درويش باشا مجموعته المعمارية المعروفة بالدرويشية وتتألف من جامع ومكتب ومدفن وسبيل . ثم عمر الوالي سنان باشا سنة ٩٩٥ هـ / ١٥٨٦ م مجموعة مشابهة بالقرب من باب الجابية (السنانية)

---

(١) امتد الحكم العثماني بين عامي ٩٢٢ و ١٣٣٧ للهجرة (١٥١٦ و ١٩١٨ للميلاد) .

(٢) عمر التكية في عام ٩٦٢ هـ / ١٥٥٤ م ثم عمر المدرسة بعدها في آخر أيام حكمه عام ٩٧٤ هـ . انظر مقالنا عن هذه العمارة في مجلة الحوليات الأثرية السورية لعام ١٩٥٧ المجلد السابع .

وبالاضافة إلى هذه العمارات الأربع الكبرى ، نجد مسجداً بناه سنان آغا عام ٩٧٠ هـ/ ١٥٦٢ م خارج باب الفرج ، وتكية بناها مراد باشا عام ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م تعرف اليوم بجامع النقشبندي وتقع في السويقة على طريق الميدان ، وبنيت كذلك تكية للدراويش (المولوية) غربي جامع تنكز في عام ٩٩٣ هـ/ ١٥٨٥ م .

أما في داخل السور فقد بنى شمسي باشا عام ٩٦٠ هـ/ ١٥٥٣ م خان الجوخية في سوق الخياطين وتكية جنوب القلعة في سوق الحميدية اليوم . وبنى درويش باشا المار ذكره في ايام ولايته سوقه المعروف بسوق الحرير وفيه خاناً وحماماً (خان الحرير وحمام القيشاني) . وبنى مراد باشا (الثاني) عام ١٠٠٢ هـ/ ١٥٩٣ سوقاً عند باب البريد عرف بقيسارية المرادية كما بنى القبة العالية المشهورة في باب البريد عند أعمدة باب معبد جوبيتر ويرجح انها هدمت عند فتح سوق الحميدية .كل ذلك في القرن السادس عشر .

ثم تخمد الحركة العمرانية فلا نرى من العمائر طيلة القرن السابع عشر سوى تكية بنيت في محلة القدم عام ١٠٤٥ هـ/ ١٦٣٥ م ، وهي المعروفة بجامع العسالي .

وفي القرن الثامن عشر تنشط الحركة العمرانية على يد الولاة من اسرة العظم ، فيبني أولهم اسماعيل باشا عام ١١٤١ هـ/ ١٧٢٨ م مدرسة في سوق الخياطين وهي باقية إلى اليوم . ثم بنى سليمان باشا العظم الخان المعروف في الشارع المستقيم (سوق مدحة باشا) وذلك في عام ١١٤٥ هـ/ ١٧٣٢ م . ثم يأتي أسعد باشا بن اسماعيل باشا فيبني الخان والقصر المشهورين في سوق البزورية ، وذلك في عام ١١٦٣ هـ/ ١٧٥٠ م وفي أيام محمد باشا العظم يبنى القسم الغربي من سوق الحميدية والسرايا العتيقة خارج السور في مكان القصر العدلي اليوم ، وذلك في عام ١١٩٥ هـ/ ١٧٨٠ م كما يبني ابنه عبد الله باشا في عهده مدرسته الباقية إلى اليوم في الطريق الآخذ إلى قصر العظم وذلك في عام ١١٩٣ هـ/ ١٧٧٩ م .

أما في القرن التاسع عشر فقد حدث نوع من التطور على تخطط المدينة وشقت فيها طرق جديدة وجددت أسواق ومناطق سكنية واحيـــاء كحي القنوات الذي ضم مساكن الأرستقراطية التركية التي تجمعت حول السرايا المار ذكرها ، كما ان قدوم مستوطنين جدد من الأكراد والمهاجرين من أهل كريت أدى الى استعمار أجزاء واسعة من سفح قاسيون

ونشوء حي الأكراد في شرقي الصالحية وحي المهاجرين في غربها ، وطرأ على حي الميدان نمو جديد واقيمت على طوله المهن والصناعات التي لها صـلة بقوافل الحجاج واتصل البناء على (الطريق الأعظم) الممتد بين باب الجابية وباب الله في آخر الميدان .

وشيء آخر طرأ على وضع المدينة هو انتهاء الدور الحربي للقلعة والأسوار فردمت الخنادق وتحولت القلعة الى ثكنة عسكرية واحيطت أسوارها بالأسواق كما حجبت اسوار المدينة وهدم بعضها وعلتها الدور والمنشآت الطفيلية .

ونذكر من الاسواق الهامة التي نظمت في هذه الفترة سوق الحميدية وكان الجانب الغربي منه قد بني في عهد السلطان عبد الحميد الاول وعرف بالسوق الجديد كما ذكرنا في ولاية محمد باشا العظم ثم في عام ١٣٠١ هـ / ١٨٨٣ م (عصر عبد الحميد الثاني) بنى الوالي راشد ناشد باشا قسمه الشرقي من العصرونية الى باب البريد فأطلق عندها على كامل السوق اسم سوق الحميدية . وفي ولاية مدحت باشا(١) بني السوق المعروف باسمه ويمتد من باب الجابية الى البزورية وكان يعرف بسوق جقمق وهو جزء من الشارع المستقيم المفتوح في العهد الروماني وسوق آخر مسقوف يمتد من ساحة المرجة الى سوق الخيل هدم منذ عدة سنوات وكان يعرف بسوق علي باشا . وأخيراً سوق الخوجا الذي بناه ناظم باشا بحذاء القلعة .

ومنذ القرن التاسع عشر أخذت أساليب العمارة الاوروبية تغزو المدينة وتقام المباني وفق هذه الأساليب الحديثة فتغير طابع المدينة ومعالمها .

ونذكر من المباني المشيدة في أواخر العهد العثماني والتي ما تزال إلى يومنا دار المعلمين (مقر وزارة التربية اليوم) ، والثكنة الحميدية (مقر جامعة دمشق) ، والسرايا الجديدة (دار الحكومة) ، والمستشفى الوطني(٢) الذي انتقلت اليه مهام البيمارستان النوري الطبية وعرف باسم مستشفى الغرباء . وقصر الوالي ناظم باشـا في المهاجرين الذي أصبح مقراً للقصر الجمهوري القديم .

وفي العهد العثماني الأخير بديء بالعناية بالمواصلات وشقت طرق حديثة تصل بين المدينة القديمة وأرباضها ، التي لم تعد في الواقع ارباضاً بل اتصلت بالمدينة وأصبحت جزءاً منها

(١) تولى مدحت باشا ولاية دمشق في عام ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨ م .
(٢) بني في عام ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩ م كما جاء في خطط الشام لكرد علي ٥ / ١٨١ .

فبنيت عدة جسور على نهر بردى وشق طريق الصالحية لتسيير خط الحافلات ثم احدث لهذا الخط فرع من الجسر الأبيض الى الشيخ محيي الدين وآخر الى المهاجرين . وشق شارع من سوق الحميدية الى محطة الحجاز عرف بشارع جمال باشا (شارع النصر) وآخر من جانب المحطة إلى باب سريجة (شارع خالد بن الوليد) . وتستمر حركة التخطيط والتنظيم هذه في عهد الانتداب ثم تنمو نمواً عظيما بعد الاستقلال وخاصة في المناطق السكنية الواسعة التي احدثت خارج الأسوار تلبية للزيادة المطردة في عدد السكان . فقد ارتفع عدد النفوس من ١٥٠ الفاً في منتصف القرن التاسع عشر الى ٣٣٥ الفا في منتصف القرن العشرين . وهكذا أصبح في دمشق مدينتان متميزتان الاولى قديمة محافظة تقف في وجه التطور الحديث فخورة بماضيها التليد وأوابدها العريقة ورائحة الشرق العابقة بين أزقتها الملتوية وأسواقها الضيقة الظليلة . وأخرى حديثة ، اوربية المظهر بشوارعها العريضة المستقيمة وأسواقها المكشوفة وأبنيتها ذات الهندسة الاوربية . وهي تبـــدي استعدادها لتلقي كل تطور ولتطبيق اية نظرية في فن العمارة والتنظيم الحديثين .

مستقبل المدينة القديمة

لا بد لي أخيراً من أن أختم بحثي بكلمة عن مستقبل المدينة القديمة ، اعالج بها قضية بقائها والاخطار التي تتهددها . واقصد بالمدينة القديمة القسم المحدود بالأسوار ، لأن ما كان خارج الأسوار من أرباض ومناطق تحيط بالمدينة وتتممها زالت معالمه وشمله التنظيم والتجديد واندمج بالمدينة الحديثة ، ولم يبق منه سوى أبنية تاريخية متفرقة تشاهد هنا وهناك .

ومدينة الأسوار هذه التي ما تزال تحتفظ بجانب هام من أسوارها وكل أبوابها الثمانية ، وأسواقها وخاناتها وأوابدها وأزقتها الضيقة وكل خصائصها التاريخية ، لهي جديرة بالبقاء على قدمها أسوة بالمدن القديمة الاخرى ، التي تبذل البلدان الراقية غاية جهدها للمحافظة على كيانها وتتركها تعيش حياتها الخاصة الى جانب المدينة الحديثة التي تمتد وتتسع وتتطور باستمرار وهي انما تفعل ذلك لا عجزاً عن تطويرها أو تجديدها وانما تقديراً لمكانتها وحرصاً على تراث خاص لا تتوفر في غيرها .

لقد أتيح لي أن أزور بعض هذه المدن في ايطاليا وسويسرا واسبانيا ولاحظت ان ما في

قرطبة واشبيلية ونابولي وزوريخ من مدن قديمة تعيش هادئة بنظامها القديم دون أن يقيم وجودها مشكلة مستعصية يتزمر منها المسؤولون .

أما في دمشق فالأمر يختلف كل الاختلاف ، فان من يتجول في مدينتها القديمة يجد عجباً ، يجد أزمة مرور فظيعة وازدحاماً لا يطاق ، قد تشابكت في أسواقها وأزقتها الضيقة الشاحنات والسيارات والباصات والطنابر والحمير . ويشاهد كذلك بناء ضخما من الاسمنت المسلح يقوم في الزقاق الضيق الى جانب المساكن الصغيرة ، غير مؤتلف مع طبيعة هـذا الزقاق وبيئته . والسبب في ذلك أن المسؤولين عن الحركة العمرانية في المدينة لم ينهجوا منذ البدء نهجاً سليما ولم يعطوا لهذه المدينة التاريخية حقها من الاهتمام الذي يضمن لها أسباب البقـاء ، رغم كونها أجدر بهذا البقاء من اخواتها المدن التي ذكرناها آنفاً ، وان التراث والذكريات الكامنة في ثناياها أكثر شهرة ومكانة . لقد سمحوا لأبنيـة الاسمنت المسلح الدخيلة بغزوها والتغلغل بين أحيائها . وسمحوا للسيارات بالتدفق اليها والتوغل في أرجائها ، الأمر الذي لم تخلق له المدينة ولا يتفق مع طبيعتها وامكانياتها الأصيلة . واستتبع ذلك فتح بعض الشوارع العريضة لحل أزمة المواصلات ومشاكل المرور ، فتفككت بذلك عراها واختل انسجامها ولم تنته الأزمة ، بل ازدادت صعوبة وتعقيداً ، والنتيجة الحتمية لهذه التدابير زوال ما يعرف بالمدينـة القديمة . وفعلاً فقد ظهرت محاولات في السنوات الأخيرة تهدف إلى تحويلها إلى مدينة حديثة والقضاء نهائياً على الحصار الذي ما تزال تفرضه أمام التطور الحديث ، معتدة بمكانتها التاريخية وشهرتها العالمية ، ووقوف رجالات الآثار وأنصار التراث القديم إلى جانبها يشدون أزرها ويدافعون عنها .

وهكذا نهدم بأيدينا ودون مبرر مدينتنا القديمة بينما يبذل غيرنا جهوداً جبارة لاحيـاء ما تهدم من مدنه القديمة التي دمرتها الحرب الأخيرة لكي لا تغيب في عالم النسيان ، كما فعل البولونيون بمدينتهم فارسوفيا ، بل يذهب بعضهم إلى أكثر من ذلك ، لقد أوجد الأسبان في حديقة برشلونة مدينة قديمة بنوها حديثاً لتمثل مدن القرون الوسطى الاسبانية بأسوارها وشوارعها وساحاتها ومبانيها وكنائسها وأسواقها ، واستغلوها للأغراض السياحية وتعرف اليوم باسم Pueblo Espagnol .

ويدعي واضعو مشروع إدخال النظام الحديث على مدينة دمشق القديمة بأنهم احتفظوا بالمباني التاريخية دون هدم وهذا كاف في نظرهم ، ولكنا نرى بأن مصير هـذه المباني مآله الهدم لا محالة كنتيجة طبيعية للمشروع ، لأنها لا تستطيع البقاء في غير البيئة التي خلقت فيها والتي سيعزلها المشروع عنها ، فتبدو عارية ، أو متشحة بثوب قديم ، ممزق أحياناً . وستقف بقامتها المتواضعة في الشوارع الحديثة إلى جانب العمارات الفخمة ، ويكون وجودها حينئذ شاذاً فيمتد اليها معول الهدم دون من يستنكر ذلك . والسبب في ذلك أن مبانينا القديمة لها خصائص لا تتفق مع هذه التعرية لأن عناية المهندس كانت منصرفة إلى داخلها لا إلى مظهرها الخارجي ، كقصر العظم مثلاً الذي يبدو من الخارج فقيراً متواضعاً . وهذه القاعدة تختلف عما عليه الأبنية القديمة في اوربا التي تبنى جدرانها الخارجية جميلة مزخرفة لا يضيرها أن تبدو مكشوفة للعيان .

ولحسن الحظ تحرج المسؤولون من التضحية بالمدينة القديمة وطووا هذا المشروع مؤخراً واستدعوا أحد مشاهير خبراء التنظيم المهندس (ايكوشار) ليضع الحل المناسب ويخطط مشروعاً أفضل بما له من خبرة سابقة بمدينتنا وبعض مدن الشرق العربي . ونحن ننتهز هـذه المناسبة لنذكر بعض الحقائق ونشير إلى أخطاء سبق ان ارتكبهـا المهندسون في الماضي بحق المدينة ثم نقترح نوعاً من الحلول فنقول .

كانت مدينة دمشق القديمة تحتكر ككل المدن القديمة النشاط التجاري ، وتتجمع فيهـا الأسواق العـامة والخانات ، ولكن هذا النشاط ، كان على مستوى العصور القديمة ، أما في العصر الحديث فقد تطور هذا النشاط وتضخم ولم يعد من حيث الحجم والوسائل يأتلف مع التنظيم القديم للمدن . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التطور قيـام مراكز تجارية حديثة خارجها ، يتحول إليها ميدان العمل الكثيف في التجارة والصناعة والمهن الحرة . فتتحول بالتالي المدينة القديمة تدريجياً الى مدينة سكنية سياحية ، فيها من المحلات والأسواق ما ينسجم مع وضعها التاريخي ، وفيها من الخدمات ما يسد حاجة سكانهـا وحاجة السياح الذين يؤمونها كالمطاعم والمقاصف ومحلات بيع التحف والهدايا .

ذلك هو الحل الوحيد لقضية المدن القديمة والذي أخذت به البلدان الأخرى ، بينما فرضت على دمشق حلول معاكسة تجعل من مدينتها القديمة مركزاً تجارياً رئيسياً ، تتمركز فيه تجارة الجملة والأعمال

المالية وكثير من الصناعات الصغرى . ونفذت هذه السياسة الخاطئة منذ أن خططت منطقة الحريقة . وبدلاً من أن تعاد هذه المنطقة التي هي جزء من مدينة الأسوار الى سابق عهدها كحي سكني هادىء ، فقد جعلت منطقة تجارية خالصة . ثم سار المسؤلون على هذه السياسة في كل أنحاء المدينة وأخذت تتحول المباني السكنية القديمة شيئاً فشيئاً الى مبان للتجارة والأعمال وتتفاقم معها مشكلة المرور وتصبح من المشاكل المستعصية التي يحار المسؤلون في إيجاد حل لها. ومما أكد تلك السياسة الخاطئة أن المشرفين على التنظيم ، حين أوجدوا عدداً من مناطق التنظيم الحديثة لم يحدثوا فيها أسواقاً وابنية تجارية تمتص الحاجة وتخفف العبء عن المدينة القديمة ، كما كان يجب أن يحدث .

ومن الطبيعي أن يشكل النشاط التجاري المتزايد خطراً على المدينة القديمة ، لأن قيام مثل هذا النشاط يتبعه بالضرورة مزيد من حركة النقل والمرور ، فالصناعات وتجارة الجملة تستدعي وصول الشاحنات الضخمة اليها لتزويدها بالبضائع والمواد الاولية ، وتستدعي بالتالي عديداً من سيارات النقل لتصدير هذه البضائع وتوزيعها الى أنحاء مختلفة . هذا فضلاً عن أن كل محل تجاري أو مصنع أو مكتب يستدعي استخدام عديد من سيارات الركوب لصاحبه وزبائنه .

والسياسة الحكيمة اليوم تفرض علينا الرجوع عن هذه الخطة الخاطئة ، وإن كان الأمر الآن ، بعد أن قطع الحل الخاطيء شوطاً بعيداً ، أصبح من الصعوبة بمكان . ولكن لا بد من انقاذ ما يمكن انقاذه من تراث ثمين وذكريات تاريخية يذكرها أبناء الإنسانية ، لا أهل دمشق وحدهم ، بكثير من الاعجاب والتقدير .

وها كم أخيراً بعض الخطوط العامة للعلاج المتمثل في التدابير الممكن اتخاذها لانقاذ المدينة القديمة وتحويلها الى مدينة سكنية سياحية لا أكثر .

أولاً : التوقف عن إقامة أبنية ومنشآت للتجارة والصناعة في المدينة القديمة .

ثانياً : العمل على نقل النشاط التجاري والصناعي الحالي تدريجياً الى خارج الاسوار .

ثالثاً : الاكثار من اشادة المنشآت التجارية في المناطق الحديثة بحيث تتسع للمكاتب والمحال والمستودعات وكذلك للأسواق الداخلية المسقوفة لتحل محل الخانات القديمة وأسواقها وما فيها من منافع ومغريات . وهذا ما يحدث فعلاً على نطاق واسع في مدينة حلب القريبة منا والتي خففت الكثير من أعباء مدينتها القديمة .

رابعاً : منع الشاحنات وسيارات النقل الكبيرة من الدخول الى المدينة . القديمة وهذا مما يحمل كثيراً من أصحاب الأعمال على الانتقال الى المناطق الحديثة حيث مجال العمل فيها أرحب وأكثر يسراً .

خامساً : استملاك بعض الخانات واتخاذها أسواقاً سياحية واحلال المهن اليدوية وبعض الخدمات السياحية فيها .

سادساً : منع اشادة البنايات الحديثة في المدينه القديمة ، ويفرض على المساكن القديمة عند اصلاحها أو تجديدها، أن يحافظ على طراز الهندسة العربية وتقاليدها المألوفة من حيث مواد البناء والمظهر الخارجي . ولا بأس من أن يسمح بإدخال بعض التطورات في التنظيم الداخلي لتوفر مزيداً من الراحة واليسر الذي تمتاز بها العمارة الحديثة .

ولا شك أن هناك حلولاً أخرى عملية لدي المختصين من مهندسي التنظيم والعمارة قد تكون أفضل مما عرضته لحل مشكلة المدينة القديمة .

تلك هي قصة مدينة دمشق العريقة في نشوئها وتطورها ، في حاضرها ومستقبلها . رويتها باختصار . راجيا أن أكون قد وفقت بعض التوفيق في إبراز مكانتها وشأنها في تاريخنا القديم ، هذه المكانة الجديرة بأن تدفع المسؤولين الى بذل المزيد من الجهد لخير المدينة والحفاظ على تراثها .

المصادر

١ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٣٢

٢ ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ، المجلدين الأول والثاني ، تحقيق المنجد ، طبعة المجمع العلمي بدمشق ، عام ١٩٥١ ، ١٩٥٤

٣ ـ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقـاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٤٢

٤ ـ ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، طبعة ليدن ، ١٩٠٨

٥ ـ ابن العماد : شذرات الذهب ، طبعة القاهرة ، ١٣٥٠ هـ

٦ ـ ابن طولون : القلائد الجوهرية في تاريخ الصـالحية ، مطبوعات مكتب الدراسات في دمشق ، ١٩٤٩

٧ ـ ابن طولون : الشمعة المضيئة في تاريخ القلعة الدمشقية ، دمشق ١٣٤٨ هـ

٨ ـ ابن عبد الهادي : ثمار المقاصد في تاريخ المساجد ، تحقيق أسعد طاس ، بيروت ، ١٩٤٣

٩ ـ » » : نزهة الرفاق عن شرح حـال الأسواق ، نشره حبيب الزيات في الخزانة الشرقية ، الجزء الثالث

١٠ ـ » » الاعانات على معرفة الخانات ، نشره حبيب الزيات في الخزانة الشرقية ، الجزء الثاني ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٤٦

١١ ـ الحسن المهلبي : المسالك والممالك ، مخطوط ، نشر قطعة منه المنجد في مجلة معهد المخطوطات لعام ١٩٥٨

١٢ ـ المقدسي البشاري : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طبعة ليدن ، ١٩٠٩

١٣ ـ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، طبعة النجف ، ١٣٥٨ هـ

١٤ ـ الذهبي : تاريخ الاسلام ، طبعة القاهرة ، ١٣٦٨ هـ

١٥ – ابو شامه (شهاب الدين المقدسي) : الروضتين في أخبـار الدولتين النورية والصلاحية ، طبعة لجنة التأليف في القاهرة ، ١٩٥٦
١٦ – » » » : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، طبعة دار الكتب في القاهرة ، ١٩٤٧
١٧ – الأب يوسف نصر الله : القلمون في العهد الروماني والبيزنطي ، مجلة الحوليات الأثرية السورية لعام ١٩٥٢ ، ١٩٥٦
١٨ – ابن جبـير : الرحلة ، تحقيق حسين نصار ، طبعة القاهرة ، ١٩٥٥
١٩ – ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأبصار وعجائب الأسفار ، طبعة المكتبة التجارية بمصر ، ١٩٣٨
٢٠ – ابن جمعه المقار : الباشات والقضاة او ولاة دمشق في العهد العثماني ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق
٢١ – أبو البقاء البدري المصري : نزهة الأنام في محاسن الشام ، طبعة القاهرة ، ١٣٤١ هـ
٢٢ – ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، تحقيق أحمد زكى ، طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٤
٢٣ – القاضي الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ، تحقيق محمد حميد الله ، الكويت ، ١٩٥٩
٢٤ – النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق الأمير جعفر الحسني ، طبعة دمشق ، ١٩٤٨ ، ١٩٥١
٢٥ – بدران : منـادمة الأطلال ، مخطوط في المكتبة الظاهرية ، نشره مؤخراً المكتب الاسلامي للطباعة والنشر بدمشق
٢٦ – البلاذري : فتوح البلدان ، طبعة القاهرة ، ١٩٠١
٢٧ – بشير زهدي : مملكة دمشق الآرامية ، الحوليات السورية ، عام ١٩٥٩
٢٨ – ابن إياس : بدائع الزهور في تاريخ مصر ، طبعة دار المعارف ، ١٩٥١
٢٩ – محمد كرد علي : خطط الشام ، طبعة دمشق ، ١٩٢٥

٣٠ ـ محمد بن عيسى بن كنان : المروج السندسية في تاريخ الصالحية ، تحقيق احمد دهمان ، طبعة دمشق ، ١٩٤٧

٣١ ـ عز الدين بن شداد : الاعلاق الخطيرة ، الجزء الثاني تحقيق الدكتور سامي الدهان ، طبعة المعهد الفرنسي بدمشق ، ١٩٥٦

٣٢ ـ جورج حداد : دمشق في كتابات المؤلفين الكلاسيكيين والعرب ، الحوليات الأثرية السورية عام ١٩٥١

٣٣ ـ القلقشندي : الصبح الأعشى ، طبعة القاهرة ، ١٩١٣

٣٤ ـ نعمان قساطلي : الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، طبعة بيروت ١٨٧٩

٣٥ ـ محمد اديب الحصني : منتخبات التواريخ لدمشق ، دمشق ، ١٩٢٧

٣٦ ـ جورج يني : تاريخ سورية .

٣٧ ـ نجم الدين الغزي : الكواكب السائرة بأعيـان المائة العاشرة ، مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق ، نشر الجزء الأول جبرائيل جبور ، طبعة بيروت ، ١٩٤٩

٣٨ ـ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، طبعة مصر ، ١٩٠٦ .

٣٩ـ Abel : Géographie de la Palestine.

٤٠ـ Porter : Five years, in Damascus - 1855.

٤١ـ Sauvaget : Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas.

٤٢ـ Sauvaget : le plan antique de Damas, Syria, XXVI - 1949.

٤٣ـ Dussaud : Topographie Historique de la Syrie antique et médiévale.

٤٤ـ N. Elisséff : Dimshk. l'Encyclopédie de l'Islam N. E. laiden.

٤٥ـ Dussaud : les Arabes en Syrie avant l'Islam.